

دور المذاهب الفقهية في إدخال الحديث إلى بلاد الغرب الإسلامي

للدكتور محمد عز الدين المعيار الإدريسي
أستاذ التعليم العالي - رئيس المجلس العلمي - مراكش

الدكتور عز الدين المعيار الإدريسي من علماء جامعة ابن يوسف بمراكش، وخريج دار الحديث بالرباط، وهو اليوم رئيس المجلس العلمي بمراكش، وجهة تانسيفت وله عدة أبحاث في الحديث، والفقه، والتاريخ: وقد أصدر مؤخرا كتاب: «تاريخ وأعلام»

على الرغم من دخول عدد من الصحابة والتابعين، إلى بلاد الغرب الإسلامي،(1) فإنه لم يتحقق ظهور أي لون من النشاط الحديثي، في السنوات الأولى التي تلت الفتح، لعدة أسباب، كتأخر انتشار الإسلام واللغة العربية، وانشغال الفاتحين بالجهاد، وبعد المسافة بين بلاد

1) كان جيش عبد الله بن أبي سرح أكثره من الصحابة، وكان نصيب إفريقية من ذلك في المقام الأول وقد قبر بها بعضهم، وكان بجيش عقبة بن نافع خمسة وعشرون صحابيا، وقد تتبع هذا البحث أسماء الصحابة الداخلين إلى بلاد الغرب الإسلامي فوقف على أسماء حوالي ستين صحابيا، منهم عبد الله بن عباس وعبد الله بن عمر عبد الله بن عمرو بن العاص، وعبد الله بن الزبير وعبد الله بن سعد بن أبي سرح وغيرهم وقد وصل منهم إلى المغرب الأقصى أكثر من عشرين صحابيا، فيما لم تذكر المصادر المتداولة بين أيدينا اليوم من الصحابة الداخلين إلى الأندلس سوى رجل واحد مختلف في صحبته وهو المنذر الإفريقي، أما التابعون الذين دخلوا إلى بلاد الغرب الإسلامي فعددهم كبير، يصعب الاطمئنان فيه إلى رقم معين؛ ولابن بشكوال كتاب سماه : «التنبيه والتعيين لمن دخل الأندلس من التابعين» انظر : فتوح مصر والمغرب لابن عبد الحكم : 352 - طبقات علماء إفريقية وتونس لأبي العرب : 70 - رياض النفوس للمالكي : 1/10 - نفح الطيب المقري. 13/10، 12. . .

الغرب الإسلامي، ومراكز جمع الرواية والسنن في المشرق، والاقتصار في أول الأمر، على تعليم القرآن فحسب وغير ذلك.(2)

ثم لم يلبث أن دخل الحديث إلى بلاد المغرب، عبر مجموعة من القنوات،(3) من أهمها، المذاهب الفقهية، موضوع هذا المقال.

ومن المعلوم أن المغاربة في صدر الإسلام، كانوا على مذهب جمهور السلف من الأئمة(4) وربما بعثوا إلى المشرق من يسأل لهم عن بعض القضايا التي تعترضهم في حياتهم اليومية، قبل ظهور المذاهب الفقهية.

عن خالد بن أبي عمران، أنه أتى القاسم وسالما (من الفقهاء السبعة) بمسائل من المغرب، فذهب يسألهما، فأبيا أن يجيباه، فقال لهما خالد : «إنا بموضع جفاء في هذا المغرب، وإنهم حملوني هذه المسائل، وقالوا لي، إنك تقدم على المدينة، وبها أبناء أصحاب النبي ﷺ، فلهم لنا، وإنكما إن لم تفعلا كانت حجة لهم فما شئتما؟، فقال له القاسم : سل، فسألهما خالد فأجابه فيما سأل.(5)

وقيل : كان القرآن في الأندلس – أول الأمر – المصدر الوحيد للتشريع ولم يتم اللجوء إلى الاستعانة بسنن الرسول ﷺ إلا بعد احتكاك المسلمين بنظم الشعوب المفتوحة في المشرق والمغرب، حين وجدوا أنفسهم بسبب ذلك أمام مشاكل تشريعية معقدة، وعن هذه الاستعانة بالسنة نشأت المذاهب الفقهية.(6)

ومهما يكن، فقد عرفت أقطار الغرب الإسلامي – بعد عصر الصحابة والتابعين، عدة مذاهب فقهية سنية ساعدت على دخول الحديث إلى الغرب الإسلامي، وفيما يلي أهم هذه المذاهب مرتبة حسب وفيات

---

2) انظر : المدرسة المغربية في الجرح والتعديل للدكتور إبراهيم بن الصديق : 1/ 65.

3) من أهم القنوات التي دخل الحديث عبرها إلى بلاد الغرب الإسلامي : المذاهب الفقهية، والرحلة، والكتب انظر علم الرجال بالغرب الإسلامي – ابن الحذاء وتحقيق كتابه في رجال الموطأ للدكتور : محمد عز الدين المعيار الإدريسي 1/35-69.

4) انظر : الاستقصا للناصري : 1/ 135.

5) طبقات علماء إفريقية وتونس : 245 – 246 / رياض النفوس 1/ 163.

6) انخل بالنتيا : تاريخ الفكر الأندلسي : 2 تعريب الدكتور : حسين مؤنس – مكتبة النهضة المصرية. ط : 1 : 1955م.

مؤسسيها، وبالقدر الذي يبرز ما كان لها من أثر فعال في نشر الحديث في هذا الجناح الغربي من العالم الإسلامي.

أولا : مذهب أبي حنيفة النعمان (80 – 150هـ) ويقوم على الرأي والقياس،(7) وقد دخل إلى بلاد الغرب الإسلامي عقب استيلاء العباسيين على الحكم بالمشرق عام 132هـ وأضحى المذهب الغالب على إفريقية وما وراءها من المغرب.

ويذكر القاضي عياض أن المذهب الحنفي ظهر بإفريقية، ظهورا كبيرا إلى قريب من أربعمائة سنة ثم انقطع منها(8) ودخل منه شيء إلى المغرب والأندلس، لكنه لم يجد فيهما اتباعا.(9)

ويعود الفضل في انتشار هذا المذهب بالغرب الإسلامي، إلى أبي يوسف صاحب أبي حنيفة، الذي كان لايسند منصب القضاء إلا إلى أصحابه.(10)

ولم يمنع اختلاف المذهب ابن سحنون، من النظر في كتب أبي حنيفة، فعن بقي بن مخلد قال : «كنت أسمع من محمد بن سحنون في داخل بيت سحنون بالقيروان أشياء سمعتها بالعراق، قال بقي فرأيت كتبا مجموعة في داخل البيت فقلت له : «يا أبا سعيد إن كانت هذه الكتب رواية رويتها عنك؟».

فقال : هي كتب لأبي حنيفة «قال : فقلت له : كيف حل لك أن تنظر في كتب أبي حنيفة ؟» فقال لي: «يا بقي : كيف كان يحل لنا أن نخطئه، ولم ننظر إلى مذهبه وما يقول؟(11)

وقد تتلمذ لأبي حنيفة عدد من المغاربة، من أبرزهم : أبو محمد عبد الله بن فروخ الفارسي (ت : 176هـ).

7) مقدمة ابن خلدون : 446 – 477.

8) ترتيب المدارك : 1/65.

9) نفسه : 1/65 – الحضارة العربية في إسبانيا لبروفنصال : 159.

10) نفح الطيب : 2/15.

11) أخبار الفقهاء والمحدثين : 61.

ولد بالأندلس وكان اسمه بها عبدوسا،(12) ثم انتقل إلى إفريقية، فسكن القيروان وأوطنها.

سمع من الأعمش والثوري، ومالك بن أنس، وأبي حنيفة، وعبد الملك ابن جريح، وهشام ابن حسان، وزكرياء بن زائدة وغيرهم من العلماء، وكان اعتماده في الحديث والفقه على مالك ابن أنس، وبصحبته اشتهر وبه تفقه، مع ميله إلى النظر والاستدلال، فيما يتبين له من الصواب في مذهب أهل العراق.(13)

وكان حافظا للحديث والفقه، وقد خرج له مسلم في صحيحه،(14) وبلغ من حرصه في الطلب، أنه كان يوما عند أبي حنيفة، فسقطت آجرة من أعلى داره على ابن فروخ فأدمته، فقال له أبو حنيفة : اختر إن شئن إرش(15) الجرح، وإن شئت ثلاثمائة حديث، فاختار الحديث فحدثه ثلاثمائة حديث،(16) وفي ذلك ما يدل على مدى أثر أبي حنيفة ومذهبه في إدخال الحديث إلى بلاد الغرب الإسلامي.

كما تتلمذ أسد بن الفرات (ت : 214هـ) لعدد من أصحاب أبي حنيفة كأبي يوسف، ومحمد بن الحسن وأسد بن عمر وغيرهم، بعد أن لقي مالكا ولازمه وسمع منه الموطأ.(17) ودخل الأندلس من الحنفية أبو بكر عبد الله بن الحسن بن شجاع المروزي (ولد سنة 348) له كتاب مختصر من علم الحنفية في سبعة أجزاء اسمه «المغني» وكان واسع الرواية.(18)

وقدم إشبيلية تاجرا، عيسى بن محمد بن هارون، بن عتاب النسفي الأستاذ سنة 422هـ.

---

12) ترتيب المدارك : 3/ 102.

13) انظر تاريخ إفريقية والمغرب : 144 – 146.

14) انظر : رجال صحيح مسلم : 1/ 382 ع 843.

15) الإرش : دية الجراحة.

16) تاريخ إفريقية والمغرب للرقيق : 144 – ترتيب المدارك : 3/ 109.

17) انظر : رياض النفوس : 1/ 255 وما بعدها.

18) الصلة : 1/ 279.

قال ابن بشكوال : كان من أحفظ الناس لأخبار العلماء وأميزهم بالتعديل(19) والتجريح، وكان حنفي المذهب ثقة فيما رواه، وصفه بذلك أبو سعيد الخليل البستي».

ثانيا : مذهب أبي عمرو الأوزاعي (88 - 157هـ).

يقول الذهبي : «كان أهل الشام، ثم أهل الأندلس على مذهب الأوزاعي مدة من الدهر، ثم فني العارفون به، وبقي منه ما يوجد في كتب الخلاف.(20)

وقد دخل الأندلس عدد من الشاميين، الذي هم في الوقت نفسه تلامذة الأوزاعي، كالمصعب ابن عمر الذي استقضاه هشام،(21) وصعصعة بن سلام أول من أدخل إلى الأندلس مذهب الأوزاعي وأحد الذين ادخلوا إليها الحديث.(22)

كما تتلمذ للأوزاعي بعض الأندلسيين، كأسد بن عبد الرحمن السباني الإلبيري الشامي الأصل، ولاه عبد الرحمن بن معاوية، قضاء كورة البيرة مرتين، ومات قاضيا عليها، ومنهم الغازي بن قيس القرطبي الأندلسي الفقيه المالكي(24). أول من أدخل موطأ مالك الأندلس.

وأخذ بالمذهب الأوزاعي، عبد الملك بن زونان (تـ 232هـ) قبل أن يرجع إلى مذهب أهل المدينة.(25)

وظل أبو كنانة زهير بن مالك البلوي القرطبي، على مذهب الأوزاعي، وعندما عذله عبد الملك بن حبيب على انحرافه على مذهب أهل المدينة، قال له : حسدتني إذا انفردت بالأوزاعية دون أهل البلد».(26)

---

19) نفسه : 2/ 441.

20) الذهبي : تذكرة الحفاظ : 1/ 182 وانظر : نفح الطيب : 3/ 230.

21) تاريخ علماء الأندلس : 2/ 133 - تاريخ قضاة الأندلس : 47 - دار الآفاق الجديدة - بيروت - لبنن ط : 5، 1403-1983م.

22) انظر : تاريخ علماء الأندلس : 1240 - جذوة القتبس : 1/ 379.

23) أخبار الفقهاء والمحدثين : 47 ع 53.

24) تاريخ علماء الأندلس : 1/ 387.

25) نفسه : 1/ 312.

26) أخبار الفقهاء والمحدثين : 100/ 114 - تاريخ علماء الأندلس 1/ 181.

وكان أحمد يلول المتوفى بتوزر سنة 262هـ، سمع من سحنون بن سعيد، ورحل في طلب الحديث، سمع منه بكر بن حماد والأعناقي، وكان أكثر سماعه من الشاميين من أصحاب الوليد بن مسلم، أو أصحاب إسماعيل بن عباس ومن تأليفه : كتاب فضائل الأوزاعي.(27)

لكن هذا المذهب لم يلبث أن انقرض، ولم يبق له أثر في الأندلس إلا في أمور قليلة، مثل غرس الأشجار في صحون المساجد.(28)

ثالثا - المذهب المالكي :

مؤسس هذا المذهب هو مالك بن أنس الأصبحي (93 - 179هـ)، ويقوم على الكتاب والنسة، والاعتراف بعمل أهل المدينة وتقديمه على خبر الأحاد.(29)

كان دخول هذا المذهب إلى بلاد الغرب الإسلامي في فترات متقاربة جدا.

ففي المغرب الأدنى يرجع الفضل في دخول فقه مالك... أول الأمر إلى علي بن زيد التونسي (ت:183هـ) فهو أول من أدخل الموطأ إلى تونس، وهو الذي نشر فقه مالك بها.(30) ثم تتابعت الوفود من المغرب الأدنى إلى المدينة النبوية للأخذ عن مالك، وفي هذا يقول محمد بن حارث الخشني : «وكانت رحلة سحنون، قد غمرها مذهب مالك بن أنس، لأنه رحل منها أكثر من ثلاثين رجلا، كلهم لقي مالك بن أنس، وسمع منه، وإن كان الفقه والفتيا في قليل منهم، كما كان ذلك في علماء البلاد، ثم قدم سحنون بذلك المذهب(. . .) فبارك الله فيه للمسلمين».(31)

أما بالنسبة للمغرب الأقصى، فالثابت تاريخيا أن الإمام مالك بن أنس، كانت تربطه بعبد الله بن الحسن روابط متينة، بسبب تلمذته

---

27) ترتيب المدارك : 41235.

28) تاريخ علماء الأندلس : 1/ 240.

29) انظر : مقدمة ابن خلدون : 449 تاريخ التراث العربي : 3/ 129.

30) ترتيب المدارك : 3/ 80.

31) ترتيب المدارك : 4/ 51.

ويبعته لولده الأكبر محمد النفس الزكية، بل والإفتاء بعدم شرعية بيعة أبي جعفر المنصور،(32) ومن ثم فغير مستبعد أن يكون ادريس بن عبد الله، أول من أدخل موطأ مالك إلى المغرب.

يقول عبد الرحمن بن محمد الجيلالي : «وكان ادريس يقول: «نحن أحق باتباع مذهب مالك، وقراءة كتابه» وذلك لرواية الإمام في الموطأ عن والده عبد الله».(33)

«وإذا كانت رواية مالك عن عبد الله في الموطأ، غير مؤكدة – الآن – فالمحقق أن مالكا تتلمذ لعبد الله الكامل وروى عنه، وتلك وشيجة قوية بين الرجلين، لابد أن تكون لها أحمد الآثار على علاقة الإمام مالك بالمولى ادريس بن عبد الله.(34)

ثم ترسخ اتباع مالك، مع ادريس بن ادريس بن عبد الله، الذي استقضى عامر بن محمد القيسي، تلميذ مالك والثوري، كما اختار أبا الحسن عبد الله بن مالك المالكي، كاتبا له.(35)

ودخل المذهب المالكي إلى الأندلس، على يد تلامذة مالك، كالغازي بن قيس، وزياد بن عبد الرحمن شبطون وغيرهما.

يقول ابن القوطية : «وفي أيام عبد الرحمن بن معاوية، دخل الغازي بن قيس الأندلس بالموطأ عن مالك بن أنس رحمه الله، وبقراءة نافع بن أبي نعيم(36) وعن ابن وضاح قال : فممن دخل الأندلس بالحديث مع صعصعة بن سلام، الغازي بن قيس».(37)

وقال أحمد بن زياد : «حدثني محمد بن وضاح قال : حدثني يحيى ابن يحيى أن زياد بن عبد الرحمان، أول من دخل الأندلس بالفقه.

---

32) انظر المدارك السنية : 64.

33) عبد الرحمن بن محمد الجيلالي : تاريخ الجزائر العام : 1/186.

34) انظر : تاريخ ابن أبي خيثمة : السفر 3 الورقة 132 ظ – تهذيب التهذيب. لابن حجر : 6/186.

35) الأنيس المطرب بروض القرطاس : 1/32، 35 – جذوة الاقتباس : لابن القاضي المكناسي : 1/25.

36) تاريخ افتتاح الأندلس : 92.

37) أخبار الفقهاء والمحدثين : 291.

والحــــلال والحـــرام. وهـو أول مـن أظهـــر سـنةتحـــويل الأرديـة والاستسقاء».(38)

وفي أيام عـبد الرحـمن بن معـاوية، دخل كذلك أبو موسى الهـواري، أول من جـمع الفـقـه في الـدين وعلم العـرب بـالأندلس، وكـان إذا دخل قرطبـة من قرية موز التي يسكـنها، لم يفت أحد من مـشايخ قرطبـة حتى يرحل عنها.(39)

وسـاعد على تثبيت المذهب المالكي بالأندلس، مـا كان يصل الأمـويين بها عن مالـك من تنويه بملكهم، وحث لتلامذته على تجنب أسبـاب الفتنة، والخروج عن السلطان.(40)

ولا يتسـع المجـال – هنا – للحـديث عن الدور الطلائعي الـذي، قـام به تلامـذة مالـك ومدرسـتـه، في إدخال الـحديث وإظهـاره ونشـره وخـدمتـه، بشكل لايضـاهيهم فيه أحد من أتباع المذاهب الفقهية الأخرى، وحسبي هنا أن أشير إلى أن توجه أهل الغرب الإسـلامي في رحلاتـهم العلمية إلى مالك لم يكن اعـتباطيـا، بل لما اشتـهر به من علم وفـضل واستـقامـة، مما أكسـبه هيبة، تضـاءلت أمامها، هيبة ملوك عصره، في المشرق والمغرب.(41)

ويرى الدكتـور مؤنس، أن المالكيـةامتازت بأنهـا لم تكن مذهبـا فقهـيا فـحسب، بل مـذهبـا سلوكيـا أيـضـا، وأن الذين تخـرجـوا بمدرسـتـه من تلامذته المبـاشرين وغير المباشـرين، عرفـوا كيف يقيـمون لأنفسـهم في البـلاد التي استـقروا فـيهـا، سلطانا روحـيا مـعنويا وسـيـاسيـا، دون أن يثيروا مخاوف أهل السلطان».(42)

وعلى كثـرة المذاهب الفقهـية التي عرفتـها بلاد الغرب الإسـلامي فإنه لم يكتب لأي منهـا أن يتشـبث به أهل هذه البلاد تشـبثـهم بالمذهب المالكي

38) أخبار الفقهاء والمحدثين : 95.

39) تاريخ افتتاح الأندلس : 92. وانظر طبقات اللغويين والنحويين : 253.

40) تاريخ افتتاح الأندلس : 97 المعجب : 38. نفح الطيب : 3/230.

41) انظر : تاريخ علماء الأندلس : 1/190.

42) د. حسين مؤنس : «شيـوخ العـصر في الأنـدلس» ك 16؟؟؟؟ سلسلة «المكتبـة الثقـافيـة : ع 146 2 – الدار المصرية للتأليف والترجمة : 1 دجنبر 1965.

الذي استقروا عليه فيما بعد، مع ما كان من نفوذ وسلطان وقهر لبعضها، في عدة جهات من أقطار المغرب الكبير ومن ثم اعتبر بعض العلماء والفقهاء كالطرطوشي وابن جزئ والقرافي حديث : «لا يزال أهل الغرب ظاهرين على الحق حتى تقوم الساعة.(43) شهادة لأهل المغرب ولإمامهم بأن مذهبه حق، توفيقا من الله تعالى وتصديقا لقول الصادق المصدوق ﷺ.

الشيء الذي كان يرفضه أبو محمد بن حزم الظاهري تعصبا لمذهبه ويقول : «وادعى بعضهم أنهم أهل مذهب مالك وهذا من استجازة الكذب واستحلاله.(44)

ويستاءل لماذا لاينصرف ذلك إلى مذاهب أخرى، كانت تبل مذهب مالك، وقد كانت إفريقية على رأي أبي حنيفة، والأندلس على رأي الأوزاعي، دهرا طويلا، فما الذي جعل صرف الخبر المذكور إلى ما هما عليه الآن؟ أولى من صرفه إلى ما كانت عليه قبل ذلك؟ ولا ندري يقول صاحب رسالة فضل الأندلس وذكر رجالها إلى ما تؤول إليه حالهما في المستأنف إلا أن يدعوا علم الغيب(45)

ويشاء الله أن تستقر أقطار المغرب الكبير على مذهب مالك إلى اليوم، عكس ماتوقع أبو محمد رحمه الله. ولعل السر في ذلك أن المدرسة المالكية تمثل في جذورها الاعتدال والوسطية، فمالك رحمه الله وسط بين الأئمة وسط بين النقل والعقل، وسط في مواقفه السياسية بين السنة والشيعة، يومن بالحوار ويقر التعددية الفكرية ويرفض أحادية الرأي وادعاء امتلاك الحقيقة المطلقة.

وكانت الدولة العباسية، ترى في كتابه الموطأ النموذج المثالي الذي يجب أن يفرض على العالم الإسلامي، الشيء الذي لم يقبله مالك.

---

43) صحيح مسلم : 3/ 1525 «33» كتاب الإمارة – 53 – باب قوله ﷺ» لا تزال الطائفة من أمتي الخ – ح – 177.

44) الرسالة الباهرة : 26 – 27 نشرت بمجلة مجمع اللغة العربية بدمشق ج 1 / المجلد 64.

45) الرسالة الباهرة : 27.

ومن مميزاته رحمه الله ما كان يقوم به من حث تلامذته على تجنب أسباب الفتنة، والخروج عن الجماعة، وعدم التسرع في الإفتاء؛ شعاره في ذلك جنة العالم!.. لا أدري – ، فمتى أخطاها أصيبت مقاتله، أو كما قال الشاعر :

ومن كان يهوى أن يرى متصدرا
ويكره لا أدري أصيبت مقاتله

وامتاز المغرب الأقصى – بفضل الله – بأنه البلد الذي لم يستطع العثمانيون بسط نفوذهم عليه، وهم الذين نشروا المذهب الحنفي في كل البلاد التي حكموها، ومن ثم بقي المذهب المالكي السائد في كل أرجاء المغرب، حتى إن أقاليمنا الصحراوية المحررة لم تعرف المذهب الحنفي أو الاباضي المنتشرين في بعض البلدان المغاربية المجاورة، وإنما ظلت مالكية مغربية أصيلة، وتلك شهادة دامغة لخصوم وحدة المغرب الترابية.

رابعا – المذهب الشافعي :

صاحب هذا المذهب هو أبو عبد الله محمد بن ادريس الشافعي (150 – 204هـ)، ويقف مذهبه وسطا بين مذهب أهل الحديث عند الإمام مالك، ومذهب الرأي عند الإمام أبي حنيفة.(46)

أخذ بمذهب الشافعي قديما بعض الناس بالقيروان،(47) ادخله إليها بعض الرحالين والغرباء، لكن لم يكن يؤبه لقول أصحابه، إلا أن يتمذهب به أحدهم في خويصة نفسه.(48)

وعلى العكس من ذلك، كان لهذا المذهب بالأندلس أتباع وقد تأصلت جذوره وامتدت عميقة في الأندلس منذ حكم الأمير محمد الأول (تـ:273هـ).

46) انظر : تاريخ التراث العربي : 3/180.
47) ترتيب المدارك : 1/26.
48) نفسه : 1/27.

ويعتبر قاسم بن محمد بن سيار القرطبي (تـ:277هـ)، أحد أبرز دعاة المذهب الشافعي في قرطبة.(49)

يقول عنه محمد بن حارث الخشني : «كان يذهب مذهب النظر، قرأت له قديما بالقيروان كتباً حسنة ألفها على أصحابها القرطبيين، من شاكلة رد الشافعي على أصحاب مالك،(50) وكان يتحفظ تحفظا شديدا من مخالفة المالكية بالأندلس، ويجبن عن ذلك ويداري فيه(51)

وكان يعجب من مذهب أهل المدينة، وأهل العراق، في الكلام قبل صلاة الصبح وبعدها، ذهب أهل المدينة إلى كراهية الكلام بعد صلاة الصبح، حتى تطلع الشمس، وأجازه بعد ركعتين، قبل صلاة الصبح، وذهب أهل العراق إلى إجازة الكلام بعد صلاة الصبح، وإلى كراهيته قبل صلاة الصبح.

قال قاسم : فليت شعري، أين أهل العراق من حديثه ﷺ، الذي ذكرته عائشة ؟ قالت : كان رسول الله ﷺ يصلي ركعتي الفجر، فإن كنت نائمة أيقظني، وإن كنت يقظانة حدثني.(52)

وأين أهل المدينة، من حديثه ﷺ: كان إذا انفتل من صلاة الصبح قال : هل رأى أحد منكم الليلة رؤيا؟.(53)

وللتجاوب بين الخليفة محمد الأول، وقاسم بن محمد، جعل الخليفة المذكور وثائقه إلى قاسم(54) هذا الأخير الذي أوصى ابنه محمدا (تـ:317هـ) بقوله: «عليك برأي الشافعي، فإني رأيته أقل خطأ.(55)

وكان مما أدخله الحافظ بقي بن مخلد إلى الأندلس، كتاب الفقه للشافعي،(56) وقال محمد بن حارث الخشني : إنه كان يستعمل اليدين

---

49) انظر تاريخ علماء الأندلس : 1/ 398. الحضارة العربية في إسبانيا لبروفنصال : 159.
50) أخبار الفقهاء والمحدثين : 301.
51) نفسه : 303.
52) نفسه : 303.
53) نفسه : 303.
54) نفسه : 303.
55) تاريخ علماء الأندلس : 1/ 398.
56) نفسه : 1/ 109.

في الركوع على مذهب الشافعي، فلما رأى أصبغ بن خليل ذلك عارضه بحديث لا أصل له.(57)

ثم إن بعض المؤرخين، اعتبروا بقي بن مخلد شافعيا،(58) على خلاف ما ذهب إليه محمد ابن حارث الخشني ومن بعده ابن الفرضي وابن حزم ثم ابن بشكوال وغيرهم، من أن بقي ابن مخلد كان مستقلا عن أي مذهب.(59) وفي الرد على الشافعي ألف يوسف بن يحيى المغامي كتابا وصف بالحسن.(60)

ومما أشاعه الحافظ ابن وضاح في الأندلس، طعن يحيى بن معين في الإمام الشافعي. فقد كان يقول : سألت يحيى بن معين عن الشافعي؟ فقال : ليس بثقة.

وهو أمر استعظمته الأوساط العلمية بالأندلس على ذلك العهد، بل إن الأمير عبد الله بن عبد الرحمن الناصر الأموي، اتهم بسبب ذلك ابن وضاح بالكذب على ابن معين.(61)

وكان الأمير عبد الله، من الدعاة النشيطين للمذهب الشافعي بالأندلس وله كتاب في مناقب بقي ابن مخلد.(62)

قال عنه السبكي في طبقات الشافعية الكبرى : كان فقيها شافعيا أديبا متنسكا شهما، سمت نفسه إلى طلب الخلافة في حياة أبيه، وتابعه قوم وأخفوا أمرهم».(63)

وقد كانت نهايته على يد أبيه يوم عيد الأضحى سنة 339هـ.(64)

ومن الشافعية المرموقين في هذه الفترة : أحمد بن بشير التجيبي المعروف بابن الأغبش (ت:326هـ) قال عنه الزبيدي في طبقاته :

---

57) أخبار الفقهاء والمحدثين : 37.

58) انظر : جذوة المقتبس 1/268 – الحضارة العربية في اسبانيا : 161.

59) انظر : أخبار الفقهاء والمحدثين : 55 – تاريخ علماء الأندلس 1/108 – رسائل ابن حزم : 2/179. الصلة : 1/117 – الحضارة العربية في اسبانيا : 160 – 161.

60) أخبار الفقهاء والمحدثين : 382.

61) انظر : جامع بيان العلم وفضله : لابن عبد البر : 394.

62) التكملة لابن الآبار : 4/39 تحقيق : د. الهراس.

63) السبكي : طبقات الشافعية : 2/203 – وانظر الحضارة العربية في اسبانيا : 161.

«كان فقيها على مذهب الشافعي، ومائلا إلى الحديث، وكان لحق بأهل الشورى، وكان يتفقه في مجلسه للشافعي، فإذا شهد مجلس الشورى، قال بقول أصحابه.(65)

وكان سمح بن محمد بن السمح من أهل جيان، قد سمع من بقي مخلد، يميل إلى مذهب الشافعي، من غير تقليد بل كان كثيرا ما يخالفه.(67)

وكان حسن بن سعيد الكتامي (ت:332هـ) قد سمع بقي بن مخلد، ورحل إلى المشرق فأخذ عن أئمة الحديث والفقه هناك، وكان يميل إلى مذهب الشافعي وترك حضور الشورى لما رأى الفتيا دائرة على مذهب المالكيين، ولزم بيته.(68)

وممن كان يميل إلى مذهب الشافعي من المشاهير غير من ذكر، يحيى بن عبد العزيز الخراز (ت:290هـ) وكان من أهل الحديث،(69) ومنهم الحميدي؛.. وتحول أبو محمد ابن حزم (ت:456هـ) من المذهب المالكي إلى الشافعي، قبل أن يستقر على المذهب الظاهري.

وقال الحميدي : إن الحافظ ان عبد البر النمري كان يميل في الفقه إلى أقوال الشافعي.(70)

وتجدر الإشارة إلى أنه وفد على الأندلس، عدد كبير من الشافعية كعبيد الله بن عمر القيسي البغدادي(71) (ت:295هـ)، ومحمد بن أحمد بن إبراهيم بن أبي بردة البغدادي (ت:373هـ) لم يصل إلى الأندلس – حسب ابن الفرضي – أفهم منه بالمذهب،(72)

---

64) طبقات الشافعية : 2/230.

65) طبقات النحويين واللغويين : 282.

66) التكملة : 4/132 تحقيق : د. الهراس.

67) ترتيب المدارك : 5/97.

68) تاريخ علماء الأندلس : 1/129.

69) نسفه : 2/182 وانظر : أخبار الفقهاء والمحدثين : 375.

70) جذوة المقتبس : 1/295.

71) تاريخ علماء الأندلس : 1/116.

72) تاريخ علماء الأندلس : 2/116.

وأيوب بن نصر المقدسي، قدم الأندلس تاجرا سنة 424هـ،(73) وعلي ابن إبراهيم التبريزي ابن الحارث، قدم الأندلس سنة 421هـ، سمع منه جماعة من علماء الأندلس وغيرهم.(74)

خامسا – المذهب الحنبلي :

ينسب هذا المذهب، إلى أحمد بن محمد بن حنبل الشيباني (164 – 241هـ)، ويقوم على استنباط الأحكام من القرآن والسنة، ولا يعتمد على الرأي إلا في حالات الضرورة.(75)

قال ابن خلدون : «أما أحمد ابن حنبل فمقلده قليل لبعد مذهبه عن الاجتهاد، وأصالته في معاضدة الرواية والأخبار بعضها ببعض، وأكثرهم بالشام والعراق، من بغداد ونواحيها، وهم أكثر الناس حفظا للسنة ورواية الحديث.(76)

وجاء في ترتيب المدارك : أن أحمد بن حنبل قال : الخبر الضعيف عندي، خير من القياس، وبديهة العقل تنكر هذا، فلا خير في بناء على غير أساس.(77)

على أن أخذ الإمام أحمد بن حنبل بالحديث الضعيف، ليس على إطلاقه، كما هو مبين في محله(78)

وقد دخل المذهب الحنبلي الأندلس، بواسطة بعض الرحالين والغرباء،(79) وتتلمذ للإمام أحمد بن حنبل، من كبار محدثي بالأندلس، بقي بن مخلد، ومحمد بن وضاح، كما أدخل بعض كتبه، الحافظ أبو محمد عبد الله بن محمد بن القاسم بن حزم الثغري

73) الصلة : 1/113.

74) الصلة : 2/427.

75) تاريخ التراث العربي : 3/215.

76) مقدمة ابن خلدون : 448.

77) انظر ترتيب المدارك : 1/92.

78) انظر : مجموع فتاوي ابن تيمية : 18/65.

79) ترتيب المدارك : 1/27.

القلعي(تـ:383هـ) سمع ببغداد من أبي علي ابن الصواف : أحمد بن حنبل، ومن أبي بكر أحمد بن جعفر ابن حمدان «مسند» أحمد بن حنبل، والتاريخ له.(80)

ودخل الأندلس من الحنابلة، سالم بن علي بن ثابت الغساني اليماني أبو زيد، قدم تاجرا سنة 416هـ (81) لكن على الرغم من أثر أحمد البعيد في النهضة الحديثية بالأندس، فإن مذهبه لم يتعد، من تدين به في نفسه على حد تعبير القاضي عياض.(82)

أما في أقطار الغرب الإسلامي الأخرى، فكان الأمر في التمذهب بمذهب أحمد كالأندلس أو أقل، تعرف عليه العلماء بواسطة بعض الرحالين والغرباء.(83)

قال بعض أصحاب سحنون : عرست فدعوت ليلة عرسي، جماعة من أصحابنا، فأتوني وفيهم رجل من أهل المشرق - كان قدم علينا - من أصحاب أحمد بن حنبل، وكان الناس يسمعون منه العلم، وكان شيخا مسمتا نبيلا، قلما رأينا مثله.(84)

سادسا - المذهب الظاهري :

صاحب هذا المذهب وزعيمه هو داود بن علي الأصفهاني (تـ:270هـ).

كان والده حنفيا ومال هو في أول أمره إلى الشافعية، ثم رفض القياس والتقليد، وبالتالي رفض الانضمام لمذهب أي إمام من الأئمة، وأقام مذهبه على أساس اعتماد، ظاهر القرآن والسنة فقط، ولذلك سمى اتباعه بالظاهرية :(85) وقد دخل المذهب إلى الأندلس على يد عبد الله

---

80) تاريخ علماء الأندلس : 1285.
81) الصلة : 1/ 232.
82) ترتيب المدارك : 1/ 27.
83) نفسه.
84) رياض النفوس : 1/ 442 - ترتيب المدارك : 4/ 73.
85) تاريخ التراث العربي : 3/ 252.

ابن محمد ابن قاسم بن هلال القرطبي (ت:272هـ) زمان الأمير محمد ابن عبد الرحمن.(86)

ومن أعلام هذا المذهب بالأندلس، القاضي منذر بن سعيد البلوطي الكرني(87) (ت:355هـ) وأبو الخيار مسعود بن سليمان بن مفلت الشنتريني(88) أستاذ ابن حزم وهشام بن غالب الغافقي (ت:438هـ).(89)

وفي الوقت الذي كاد فيه المذهب الظاهري يلفظ أنفاسه، ظهر أبو محمد علي بن أحمد سعيد بن حزم القرطبي (384-456هـ) فناصره بقوة وجراءة، أعادت إليه الروح، وضمنت له البقاء إلى حين.(90)

واستمر المذهب الظاهري بالأندلس، فكان بعد ابن حزم من الظاهرية، فرج بن حديدة البطليوسي(91) (ت:480هـ) ومحمد بن حسن الأنصاري(92) (ت:532هـ) وغيرهما ثم تعلق به ملوك الموحدين بالمغرب بعد قيام دولتهم، خصوصا يعقوب المنصور الذي كان يقول عن ابن حزم : «إن كل العلماء عيال عليه».(93)

وإلى جانب المغرب والأندلس دخل شيء من المذهب الظاهري إلى القيروان، لكن يبدو أن أهلها لم يولوه كبير اهتمام، حتى إن ابن الحداد

---

86) أخبار الفقهاء والمحدثين : 217 - تاريخ علماء الأندلس : 1/ 257.

87) انظر : طبقات النحويين واللغويين للزبيدي : 295.

88) الصلة : 2/ 218.

89) نفسه : 2/ 652.

90) انظر : مقدمة ابن خلدون : 446 - 447 - ويرى الدكتور عبد المجيد التركي أن سر تقدير ابن حزم ليفي بن مخلد، ربما يرجع إلى أن هذا الأخير هو الذي أدخل المذهب الظاهري إلى الأندلس (قضايا ثقافية : 173).

91) الصلة : 2/ 582.

92) نفسه : 2/ 582.

93) نفح الطيب : 2/ 162.

(تـ:302هـ) تكلم ذات يوم في مسألة، فقيل له : إن داود قال فيها : كذا وكذا، فقال مستخفا : لو كان نومي كيقظة داود، تكلمت في العلم». (94)

سابعا – مذاهب أخرى :

عرفت بلاد الغرب الإسلامي، دخول بعض المذاهب الأخرى، لكن في نطاق ضيق، وربما في أمور محدودة كمذهب الليث بن سعد المصري (تـ:175هـ) الذي أخذ به يحيى بن يحيى – مثلا – في ترك القضاء بالشاهد ويمين، وترك القنوت وجواز كراء الأرض بجزء مما يخرج منها، والقضاء بدار أمين، إذا لم يوجد من أهل الزوجين حكمان!..(95)

والليث إمام المدرسة المصرية، قال عنه أحمد بن حنبل : مافي هؤلاء المصريين أثبت من الليث، لا عمرو بن الحارث ولا غيره؛ ما أصح حديثه.(96)

ومن تلامذته بالغرب الإسلامي بالإضافة إلى يحيى الليثي : زياد شبطون وعلي بن زيد التونسي،(97) والبهلول بن راشد وقرعوس وغيرهم.(98)

ومن المذاهب التي كان لها أثر، في دخول الحديث إلى الغرب الإسلامي، مذهب سفيان الثوري (تـ161) قال ابن عينية : ما بالعراق أحد يحفظ الحديث إلا سفيان».(99)

---

94) ترتيب المدارك : 5/ 80.

95) انظر : أخبار الفقهاء والمحدثين : 348 ترتيب المدارك : 3/ 383.

96) انظر : عوالي الليث بن سعد القاسم بن قطلوبغا رواية الطولوني : 48 (مقدمة المحقق).

97) ترتيب المدارك : 3/ 80.

98) نفسه : 3/ 87.

99) انظر : شرح علل الترميذي : 1/ 453.

ويعد أول من رتب الأحاديث ترتيبا موضوعيا في الكوفة،(100) وكتابه الجامع من أول الكتب التي دخلت إلى بلاد الغرب الإسلامي، إلى جانب موطأ مالك، ومن تلامذته المغاربة علي بن زياد التونسي، عبد الله ابن غانم، البهلول بن راشد، حفص بن عمارة، عبد الله بن فروخ، عبد الله ابن عمر بن غانم الرعيني، يحيى بن مضر، قرعوس، أبو خارجة عنبسة، محمد بن الحكم، ومعاوية بن الصماوحي، عبد الله بن المغيرة، وعامر بن سعيد القيسي وغيرهم.(101)

ومن المتأخرين من يقول : إن ادريس الثاني كان على مذهب مالك، أو سفيان الثوري على مذهب قاضيه عامر القيسي المذكور قبله.(102)

والله ولي التوفيق.

---

100) تاريخ التراث العربي : 3/ 247.

101) تاريخ علماء الأندلس : (1/ 413) ترتيب المدارك : 3/ 87، 102 - طبقات علماء إفريقية وتونس : 119.

102) انظر : الدرر السنية في أخبار السلالة الإدريسية لمحمد بن علي السنوسي : 86 دار العلم بيروت لبنان ط 1 : 1406هـ / 1986م.